القيـــم وتلويـــث المثقفـــين

محمد الشحي

يُعَدّ حدث ١١ أيلول/ سبتمبر، أكبر حدث مؤثر منذ بداية الألفية الجديدة، على المستوى الإعلامي على الأقل؛ إذ كثرت المقالات، والدراسات، والمؤلفات التي اتخذت مساراتٍ متباينة، وتبنّت مواقف مختلفة؛ تبعًا للخلفية الثقافية الفكرية التي انطلقت منها، والرؤى الفلسفية المشكّلة لبنية التفكير، بما هو آلة تنزع نحو العقل. ونتيجة للتراكمات المعرفية المنطلقة من أسس فلسفيّة إنسانيّة، تمّت إعادة النظر إلى "القيم" بما تحتله من مساحة كبيرة في حقول الفلسفة (الوجود، السياسة، الأخلاق). يُطالعنا الباحث السوري رضوان زيادة، في مقاله المعنون في مجلة التسامح - التفاهم العدد السابع (الصراع على القيم: أزمة "المعرفة الإنسانية" بين الغرب والإسلام)، على ثلاث رؤى تبدو متشابهة لأول وهلة، لكنها ما تلبث أن تمتاز عن بعضها بعضًا نتيجة لاختلاف المنزع.

رغم أنّ العنوان يحيلنا إلى مقارنة غير دقيقة، في ثنائية غير متكافئة، متمثلة بين "الغرب"، بما هو عرْق حاميّ، وبين "الإسلام"، بما هو دين وعقيدة وأيديولوجيا ساميّة. من نافل القول أن نؤكد على الخلل الواضح في المقدمة هذه؛ فمفهوم "الدين" يتجاوز مفهوم "العرْق"، ويتخلله، وربما يفككه ويجعله شيَعًا. هذه الفرَضية المسبقة في التفرقة بين العرقيّ والدينيّ تستدعي تلك الرؤية الإمبريالية لطَبائع الشعوب والأعراق، وأفضلية العرْق الحاميّ على الساميّ. وفي رأيي، فإنّ هذه الخطابات قد تمّ تجاوزها منذ زمن، في الحقول المعرفية الجادة؛ فلم يعد مجديًا الحديثُ عن أصولية التفكير الإسلامي وتأخره في الوقت الذي ينشر فيه الإسلام رداءه في الغرب نفسه، مما يُوقِع أصحاب تلك الدعوات في حرج كبير.

انطلق زيادة في مقاله متحدثًا عن أصل معرفيّ مُتشكّل في الذهنية الإنسانية، يجعل الرؤى متباينةً ومختلفة، ومتصارعة. إذ نقل رأي الأنثروبولوجي آرنست جيلنر في انقسام العالم المعاصر إلى ثلاثة معسكرات أساسية:

١- الأصولية التي تدّعي امتلاك الحق المطلق وواحديته. ٢- النسبية التي تنكر فكرة الحقيقة الواحدة لكنها تتعامل مع كل رؤية خاصة وكأنها صادقة. ٣- معسكر يؤمن بواحدية الحقيقة لكنه لا يدّعي امتلاكها.

إن استخدام كلمة "معسكر" من عندي؛ وذلك ليتسق الكلام مع عنوان المقال الأصلي لزيادة والذي يتحدث عن "صراع" بين طرفين. ثم إن ذلك الصراع لا يعني الصراع بمعناه الماركسيّ الطبقيّ، ولا يعني كذلك المعنى الذي أتى به هنتنجتون في صراع الحضارات - بل إنه يعني الجدل الكوني في النسق الواحد، الجدل بين ما هو أصيل وما هو جديد، بين الهوية والعلمانية. وسنرى كيف استخدم زيادة، ببراعة فائقة، هذا الاختلاف بين المعسكرات الثلاثة ليحلل خطابات ثلاثًا إزاء حدث ١١ أيلول/سبتمبر.

طفت على السطح قطبيتان، بالضرورة، أمام حدث ١١ أيلول/سبتمبر؛ قطبية أمريكية متضررة من الحدث، وقطبية إسلامية متَّهَمة بالتسبب بهذا الضرر. وطبيعيٌّ أنْ يكون موقف كل من طرفي القطبين غير موضوعي صرْفًا؛ فالموقف الأميركي يرى في نفسه حامي حمى القيم والأخلاق، وصمام أمان العالم؛ كونه قوة كبرى فارقة. والموقف الإسلامي موقف دفاعي مسكين، واقع في أزمة مع الذات والغير؛ فهو، من ناحية، يرى أمريكا تستغلّ الخطاب الديني المتطرف لتطبّق أجنداتها المسبقة، ومن ناحية أخرى، لا يستطيع نُكران دور التراث الإسلامي في تعبئة خطاب طالبان و بن لادن. فبذلك، يكون الحقل النقدي بحاجة ماسّة لطرف محايد نوعًا ما. فيستدعي زيادة موقف المثقفين الألمان إزاء أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر؛ لتقضي بالحق بين طرفي القطبين المتنازعين.

بدأت حكاية صراع هذه المعسكرات ببَيان لستين مفكرًا أمريكيًّا تُدين الأحداث الإرهابية، وتستخدم لذلك معيارًا إنسانيًّا كونيًّا في سبيل تعزيز موقفها، والوقوف بجانب الحرب التي أعلنها بوش الابن على الإرهاب. يؤكد البيان أن الحدث إنما استهدف القيم الإنسانية الكونية التي يتبنّاها الشعب الأميركي بما يضم من اختلافات دينية وعرقية، وأنه كان إرهابًا لأجل الإرهاب. تَبِعَ ذلك بيان لمثقفين سعوديين يؤكدون على القيم الإنسانية الكونية ذاتها، ويُعيدونها إلى أصولها في الإسلام الذي يدعو إلى حرية الاعتقاد وحُرْمة الدم الإنساني. وفي المقابل، يُدين البيان السعودي النيّة الأمريكية، ويتّهمها في صميمها أنها غير صادقة فيما ترمي إليه. أخيرًا، يأتي البيان الألمانيّ وسطًا بين هذين القطبين؛ فهو لا يختلف مع المعسكرين المتناحرين في كونية القيم الإنسانية، وتحققها لجميع البشر، لكنه كذلك، يتهم القيم التي أكّد عليها البيان الأميركي، ويقول عنها إنها القيم الإنسانية بما تتجلّى به من خدمة للأجندة الأميركية؛ نظرًا إلى الموقع الجيوستراتيجي الذي تتمع به أفغانستان بين القوة النامية في الشرق (الصين)، وقوة روسيا في الشمال، وقوة أوروبا في الغرب. مما يعزز التهمة نفسها، خاصة إذا علمنا الاعتراض السعودي على الأميركي المتمثل في "إذا كانت الأحداث الإرهابية مرادة لذاتها فلماذا أمريكا بالتحديد؟ لماذا ليس غيرها؟". ولا أجد إجابة سوى أن أمريكا هي حصان طروادة الذي يتدخل في كل مدينة وبلد.

يطرح زيادة نقطة عميقة حين يتساءل عن الذي يحرك الآخر؛ هل السياسة تحرّك الثقافة، أم الثقافة والفكر هما من يرسم طريق السياسة؟

مما يحيلنا كذلك إلى مصطلح "سلطة المعرفة" عند فوكو. وبالرغم من أنّني أتفق كثيرًا مع ما يذهب إليه فوكو من فرض المعرفة سلطتها على الفرد، وتوجيهها له الوجهات التي تراها مناسبة - إلا أنني أعتذر إلى فوكو قائلا إنّ هذه السلطة التي يتخيلها إنما يخضع لها الباحث الحقيقي عن المعرفة والمعنى، أما أولئك الوصوليون فلا يعبأون بالمعرفة ولا الإنسان، بل يجعلون من المعرفة (وهنا هي القيم) الطرف الأضعف؛ يلوون ذراعها كما يريدون، ويوجّهونها الوجهة التي يشاؤون. الأمر نفسه حدث في البيان الأميركي الذي تغاضى عن كمّيّة الدماء "الإنسانية" المدنية التي أهرقتها الحرب على أفغانستان، بل برّرت لذلك بأنها كانت تقدمة في سبيل القضاء على الإرهاب. الأمر ذاته الذي جعل البيان الألماني يصف نظيره الأمريكي بالانتقائية والازدواجية.

في الختام، أرى أن رضوان زيادة قد أجاد في طرح خطاب معرفي يؤكد على اختلاف المثقفين في العالم، وانقسامهم إلى معسكرات متصارعة تبعًا لمنطلقات غير بريئة تمامًا، منطلقات تخدم أجندات تدّعي الوصاية على العالم، وتعد بتوفير الحرية والعدالة والمساواة التي هي حق من حقوق الإنسان بالولادة. أما القيم، بما هي معارف إنسانية، فكانت الحلقة الأضعف في هذا الطرح؛ إذ تم استخدامها بكل ما تحمله كلمة "استخدام" من استغلال وتحوير للحقائق وتبكيت للموضوعية.

Alshehhim@hotmail.com